

السياسة بين كلاً ولما

للمكتور زكي مبارك

الإسلام موقف الحياد ؟ فقد مضى الزمن القى كان يقال فيه : « ألم إيماناً كإيمان الجائر » ؛ فذلك الإيمان لا ينفع في هذا الجيل ولم يبق له مكان . وأنا أعتقد أن الرجل الذي يكفر بعد اجتهاد الأقوياء ، أقرب إلى الله من الرجل الذي يؤمن بعد استسلام الضعفاء . وهل تهون العقول على رهاب العقول ؟

وإنما يقف قلبي من الإسلام موقف الحياد ، لأنني أريد أن يقوم هذا البحث على قواعد علمية لا خطائية ، فهو موجه إلى قراء اللغة العربية ، وفيهم ألوف من غير المسلمين ، ومراعاهم واجب مفروض ، ومن الحتم أن يخاطبوا بالعقل قبل الوجدان . يضاف إلى هذا أن الإسلام كان في جميع أطواره ثورة عقلية ، فمن أراد من أبنائه أن يجردوا من تلك المزية ، فهو عدو لبس ثوب الصديق .

تم أواجه الموضوع فأقول :

لكل دين من الأديان خصوصيات وعموميات ؛ فالخصوصيات هي اللطائف التي يتعارف عليها أبناء الدين الواحد بعضهم مع بعض ، ولا يرضيهم أن تذاق لضعفها عن مقاومة النقد العنيف ؛ أما العموميات ، فهي الأصول التي يجوز نشرها بين جميع الناس ، لقدرتها على مواجهة التحامل بشجاعة وكبرياء . والظاهر أن « الخصوصيات » هي التطور الأول من أطوار

التدين ، فقد كان التدين في نشأته لونا من الانحمار عن المجتمع ، وهو يوجب الانفراد والانزواء ، ومن هنا كانت كلمة « الدين » مرادفة لكلمة « السر » عند الأقدمين . ومن هنا أيضاً كانت « العزلة » من ضرور التعبد ، لأنها من فنون الاستخفاء ... ألم تسمعوا أن الصوم عن الكلام كان من العبادات في كثير من الديانات ، مع أن الكلام هو أساس التفاهم بين المتعاملين من الأحياء^(١) ؟

والفترة من الزواج عند قدماء المتدينين لها صلة وثيقة بهذا الغرض ، وقد أصابت النظرة الشعبية في مصر حين سمّت الزواج « دخول الدنيا » ، وإنما كان ذلك لأن الزواج في العرف القديم لم يكن يأتلف مع التأهب للفناء في الدين

ومن هذه النقطة يتشعب حديث اليوم

فالتبني محمد قد اقترن بتسع نساء ، وقيل في تحليل هذه

(١) رأيت في « الهير المحرق » راجياً حبساً ساماً عن الكلام ثلاثين

ملاً ، وأظنه لا يقطر قبل أن يموت !



أعترف بأنني متقبل على متاعب في تحريري هذا البحث ، لأنني أكره أن يكون ضرباً من الحديث للمعاد ، وما تريد « الرسالة » في مثل هذا العدد أن تعيد كلاماً فرغ منه الناس منذ أجيال .

وأعترف أيضاً بأنني لا أجعل الفرق بين حياة الباحثين لهذا النهج وحياة من سبقهم في سالف اليهود ، فللسلفون فيما سلف كانوا يقسمون الجمهور إلى قسمين : قسم العموم وقسم الخواص ؛ ولم يكن المسمى هو الذي لا يقرأ ولا يكتب ، كما يقول اليوم ، وإنما كان المسمى هو الذي لا يدرك من مرابي القرآن والحديث ما يستطيع به تعقب أقوال الباحثين بالتعديل والتجريح ، ولهذا كان يتفق أن يسير في المصير الواحد آراء مختلف وقتل بدون أن يشعر أصحابها بأنهم مهددون بسوء القالة بين الناس ، إلا أن يكون في آرائهم ما يؤدي الخلقاء أو الملوك أو الوزراء ، وهؤلاء أيضاً كان لجبروتهم حدود ، لأنهم كانوا في الأغلب من أكابر الرجال ، وعلى علم بالزائف والصحيح من الآراء .

أما اليوم ، فمن حق من يقرأ ويكتب أن يعد نفسه من الخواص ، وأن يتعقب الباحثين في الشؤون الدينية كيف شاء ، ولولم يتفق له الاطلاع على كتاب واحد من كتب الفقه والحديث وأقول بعد هذا التمهيد : إنني سأفترض قلبي باحثاً يقف من

فما معنى ذلك ؟

معناه أن الإسلام يمزج بين هذين المطلبين ، ومعناه أن حسن المعاملة مع الناس هو المظهر الصادق للخوف من الآثام والشبهات ، وبدون الصدق في هذه المعاملة لا ينتفع المؤمن بصلاته ولا صيام ، والله يتسامح في حقوقه ولكنه لا يتسامح في حقوق الناس .
ومن أعجب العجب أن ترى القرآن يُنطق السابقين من الأنبياء بأقوال ينكرها بعض أتباع أولئك الأنبياء .

فما تأويل هذا المنطق ؟

التأويل سهل ، فالقرآن ينزه جميع الأنبياء عن أوهام الأتباع والأشياء ، وما تحدث القرآن عن نبي إلا عرفنا أن الدعوات الصوادق لا تسلم من التصحيف والتحريف .

وبقليل من التأمل ندرك أن ذلك ليس من الغرائب ، فوضوح النصوص الدولية لهذا المهد في المحاربات والمجاهدات لا يمنع من أن تصير من الألتازع عند اشتجار الأعراض ، فإظنكم بنصوص دينية جرت في الأصل مجرى التلطيح تجنباً للمدوان والاضطهاد ؟ والمقام لا يتسع لغير فرضين اثنين : فرض يوجب الأدب وهو القول بأن القرآن وحى من عند الله ، وفرض يميزه الجدل وهو الظن بأن القرآن من صنع محمد ، وللغرض الثاني فرغ سنشير إليه بعد لحات .

فعلى الفرض الأول يكون القرآن هو القَيْصَل في تقرير مذاهب الأنبياء ، وعلى الفرض الثاني يكون محمد أخضع الأنبياء في أقوالهم وأفعالهم لمذاهبه الفاتية في الوصل بين الدين والمدنية . وأنا في حيرة بين هذين الفرضين ، ولو كنت من خصوم الإسلام لاخترت الفرض الأول واسترحت ، فليس ممن الكثير أن يضاف محمد إلى الأنبياء ، ولكن الكثير حقاً أن يصل رجل غير ملهم إلى الوصل بين العلم والمدنية ، وهو عرض كان يجب أن يتنبه إليه كبار الأنبياء . و « البلية » كل البلية أن الناس عجزوا عن تحييل نظام يكون أفضل من نظام الإسلام ، وهو النظام الذي يوجب أن يوزع المرء قواه بين ثمرات الأرض وأنوار السماء .

والإنسانية أجمع تحقر الرجل الزرى في الكهوف ، والإنسانية أجمع تبغض الرجل الذي لا يعرف غير اقتناص الأموال ، والإنسانية أجمع قد اتقت على أن الإنسان الكامل

الظاهرة أقوال ، وأصح تلك الأقوال أنه أراد توكيد الصلات بينه وبين بعض القبائل والشعوب ولكن يظهر أن من الممكن أن نلتبس تعليلاً غير ذلك التعليل ، كأن نفرض أنه أراد أن يقضى قضاء مبرماً على الوهم الذي يقول بأن التدين لا يأنف مع الزواج ، وما كان ذلك « وهماً » من الأوهم ، وإنما كان « حقيقة » من الحقائق في صدور الأخبار والرهبان ، وإليهم كان الأمر في مصابر الناس من جهة الدين والأخلاق

ولكن محمداً كان يؤمن بأن من واجبه أن ينقل المفهومية الدينية مع وضع إلى وضع ، ولا يتم ذلك بغير ثورة على الرهب ، ثورة ملحقة ساحقة تضيف الرهبان إلى طوائف الخصيان ، وتصدّم عن الاستهزاء بالمؤمنين التزوجين ، فكان له ما أراد

ومحمد بشهادة خصومه كان من نماذج الفتوة العربية ، والفتى الغربي يرى الرجال قوامين على النساء ، وإذا ، يجب أن يتصل بالدنيا اتصال معاش ، ليكون رب البيت بحق وصدق ، ولتخضع له نساؤه خضوع العبد الطامع لسيد المطامع ، والرزق يذل أعناق الرجال ، فكيف يصنع بقلوب النساء ؟!

وماذا كانت صناعة محمد قبل أن يكون نبياً ؟
كان تاجراً ، والتجارة هي المختبر الصادق لأخلاق الرجال ، وقد جاز الاختبار بنجاح صرموق .

وماذا كانت صناعة محمد بعد أن صار نبياً ؟
أظنه قال : « جليل رزقي تحت ظل رعي »
ومعنى هذا أنه صار فارساً يعيش مما تغلّ الرماح والسيوف ، وذلك أكرم أنواع العيش ، وما يليق بنبي أن يكون عالة على الأتباع ، ولو كانوا من شرفاء الأغنياء .

وبإقبال محمد على الزواج صار نبياً مدنياً ، وصار مسؤولاً عن الاتصال بالمجتمع صلة معاشية ، بعد أن اتصل به صلة روحية . ومن المؤكد أن صنيمه هذا قوبل في عصره باندعاش ، واستغراب ، لأنه كان « بدعة » في عُرف رجال الدين ، ولأنه كان اعترافاً صريحاً بأن « الدنيا » مطلب لا يجب من يتجه إليه من الأنبياء والذي يراجع الأصول الأولى من الدين الإسلامي — وهي الأصول التي سبقت التفريع والتشقيق — يروعه أن يرى الإسلام يقتصد في شرح معاملة الإنسان مع الله ، وبهوله أن يراه يطلب في شرح المعاملات مع الناس .

الجوانب المدنية من التشريع الإسلامي ، ويمكن بسهولة أن نقول إن « القانون المدني » لم يشهد في جميع أدوار التاريخ شرآحاً أعمق من الشراح المسلمين ، جزاءً لله خير الجزاء ، فهم الحجة الباقية على أصالة العقيدة المدنية في الأمم الإسلامية

وأرجع إلى الظاهرة الأولى بشي من التوضيح فأقول :

كان المسلمون يرون أن لا سلامة للعالم إلا بوجود « لغة دولية » يتفاهم بها أهل الشرق وأهل المغرب ، وهل قام في الدنيا نزاع إلا بسبب انعدام التفاهم بين الناس ؟

وما زال المسلمون يساورون هذا الغرض حتى تحول إلى عقيدة دينية ، فصح عندهم أن « اللغة العربية أحسن اللغات » ، وأن الصلاة بغيرها لا تجوز ، وأنها ستكون لغة أهل الفردوس . والمسلمون يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن رحمة الله مقصورة عليهم ، وأن طمع سواهم في الجنة لا يزيد عن طمع إبليس ، وتلك غاية الغايات في الإيمان بأن « الدين عند الله الإسلام »

ذلك التصور اليوم قد يعد من ضروب الخيال ، ولكنه كان حقيقة عند المسلمين الأولين ، وبفضل تلك الحقيقة وصلوا إلى ما وصلوا إليه من التفوق الملحوظ على أكثر الممالك والشعوب .

والغريب في هذه القضية أن المسلمين الذين آثروا لغتهم بذلك التقديس قد تحجروا في فهم أغراضها تحجراً لا يعرفه أبناء اليوم ، فقد كانوا يستيحيون إنشاد أشعار المجنون في المساجد وفي أعقاب الصلوات ، وكانوا يرون خصومهم في هذه الحرية الأدبية قد « تنسكوا تنسكاً أعجمياً » ، ولذلك شواهد يضيّق عنها هذا المجال قد قول : وما الموجب لهذا التناقض الغريب ؟

وأجيب بأنهم أرادوا أن يجعلوا اللغة العربية لغة مدنية لا لغة دينية ، واللغات المدنية تتحدث عن جميع الشؤون ، ولا تسكت عن شرح الواطف والأحاسيس والأوهام والأضاليل . ألم تروا كيف اتسمت مساجد المسلمين لشرح أشعار النصراري واليهود والصابئين ؟

ويضرب عن هذا ما جاء في التواريخ الإسلامية من أعمال الرجال ، فالإسلام كتلة واحدة ، فكما نقول في وجد عمر بن الخطاب : حدثنا فلان عن فلان ، نقول في هزل عمر بن أبي ربيعة : حدثنا فلان عن فلان . وهل ثبت في أي ملة أن رجال الدين تحجروا من التكاليد فقالوا في الجمال التي يطوف بالأماكن المقدسة معشار ما قال الشريف الرضي في قصائده الحجازيات ، وكان

هو الرجل الذي يأخذ نصيبه من الدنيا مع الاحتفاظ بتصيب في الدين ومحمد هو صاحب هذا الرأي ، وبه « ادعى » على زعم أصحاب هذا الغرض أنه خاتم الأنبياء . ومن هذا اللحظ ندرك كيف صار خاتم الأنبياء ، فن السير أن تتصور نظاماً أفضل من النظام الذي شرعه محمد عن طريق الوحي أو طريق الاجتهاد . هنالك فرض نالك ، وهو أن تكون الضمائر الإنسانية تجمعت وابتدعت هذه الشخصية المحمدية ، لتكون الرمز التي يصور مثلها الأعلى في الوجود .

وتمنع من هذا الغرض مانان حصينتان ، أحدهما تاريخي وثانيهما فلسفي .

فمحمد حديث العهد في التواريخ النبوية ، ولم يمض من الزمن ما يسمح بعمله شخصية متموية ، كالتى قيل في بعض الأنبياء ، أو بعض الحكماء . ألم يشك قوم في وجود المسيح وسقراط ؟ أما الجانب الفلسفي فهو يضايق خصوم الإسلام ، لأنه يجعله سريرة وجودية ، وعندئذ يكون من الحتم أن يكون أعظم دين عرفه الوجود .

للباحث للنصف أن يدير هذا البحث كيف شاء ، فلن ينتهي إلا إلى ما انتهينا إليه ، وهو القول بأن شريعة محمد خير شريعة عرفها المجتمع الإنساني ، فهي إذاً منحة ربانية تستوجب الحمد والثناء . وهل يصدر مثل هذا الفيض إلا عن صاحب العزة والجبروت ، وهو الذى منح « إنسان الصين » على صفه قوة تتفوق أجواز السماء ، بغض النظر عن فضله العظيم في إضاءة العقول والقلوب ؟ ثم ماذا ؟

ترك إلى الباحثين للتصنيف درس هذه المعضلة بنور للنطق والعقل والمدل ، وننقل إلى شرح الاصطلاح المعروف بالتطبيق ، فكيف كان الإسلام بعد موت الرسول ؟

شرّق الإسلام وغرب ، وجرت بين أهله أحداث وخطوب ، حتى جاز القول بأن فريقاً من المسلمين أخطأوا فهم الغرض من الدين الحنيف

وفي حومة ذلك انطلقا نشهدظاهرتين بارزتين بنفوسنا : الظاهرة الأولى هي الاهتمام باللغة العربية اهتماماً يتمثل في المؤلفات التي تُمدّ بالألوف ، ويتمثل في قول بعض الفقهاء بأن الصلاة بغير اللغة العربية عمل مردود أما الظاهرة الثانية فهي الإقبال للقطع التظهير على درس

القوانين المدنية إلا لأنه كان يسار المجتمع ويراوحه ويفاديه
بلا انحسار ولا انقباض

وهل أستطيع القول بأن في الدين الإسلامي أقطاباً كانوا من
كبار الأعيان ، ومن المتصرفين في المتجرات والمزروعات ؟
إن الصوفية أنفسهم وهم الغاية في الزهد لم يملكوا الفرار
من المجتمع ؟ فقد كانوا مسئولين أديباً عن تدير المعاش للمريدين .
أليس من العجب أن تقرر أن أصدق ما كُتب في آداب التجارة
والزراعة والصناعة هو ما صدر عن أقلام الصوفية ؟

ثم ماذا ؟ ثم ماذا ؟

ثم أمضى إلى آخر الشوط فأقول :

أحب المسلمون دينهم فأقبلوا عليها بنهم وشراسة ، فاذأجَبْنَا
من ذلك الحب ؟

كان امتحاناً قاسياً عنيفاً إلى أبعد حدود التسوية والشفقة . فقد
عرفوا به أن لا بقاء للحياة بدون أخلاق ، فكيف كان نصيبهم
من شرح دقائق الأخلاق ؟

لا أزعج أني قرأت جميع ما كُتب عن الأخلاق في جميع
الديانات ، وإنما أقرر أني اطلمت على مجلدات كثيرة في الأخلاق
المنسوبة إلى رجال الدين من غير المسلمين ، فما وجدت لها حرارة
تشبه النار الموقدة في الكتب الإسلامية ، فما سبب ذلك ؟

المصلح المسلم تكتوى يده بنار المجتمع في كل يوم ، فهو
يسكب دم قلبه على القرباس ، وهو يتحدث عن واقع لا عن
خيال ، فهو يقول رأيت وغيره يقول سمعت ، وما أبعد الفرق بين
الرؤية والسمع !

الأخلاق في الكتب الإسلامية منقولة عن تجارب شخصية
لا روايات خيالية ، وما خطَّ مسلمٌ حرفاً في الأخلاق إلا وهو
يتمثل مشاهد حية من بني الناس بعضهم على بعض بلا رحمة
ولا إشفاق

معاملة المسلم مع الله تنحصر في هذه الكلمة الوجيزة
« أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »
أما معاملة المسلم مع الناس فلها ألوف وألوف من الدقائق
والتفاصيل .

فهل كان ذلك إلا لأن الإسلام أول دين عُنيَ عنايةً صريحةً
بالشؤون المدنية ؟

قد يقال : وكيف جاز أن يُسْفَه المسلمون بعد التحليق ؟

أمير الحج بتفويض من خليفة المسلمين ؟
يجب الاعتراف بأن الإسلام أعطى أبناءه حرماً لم تعرفها
سائر الديانات ، لأنه لم يكن ديناً فحسب ، وإنما كان ديناً ومدنية
ويجب الاعتراف بأن التطاول على هذا الدين لا يقع إلا من
الأوشاب والمأجورين ، فما كان إلا نعمة نورانية جاد بها الله على
هذا الوجود

وماذا أقول في شرح الظاهرة الثامنة ، وهي الاهتمام بما
في التشريع الإسلامي من الجوانب المدنية ؟

تنقسم كتب الفقه إلى قسمين : قسم العبادات وقسم المعاملات
ويلاحظ من يقرأ كتب الفقه أن المؤلفين يترقبون في شرح
القسم الأول ، ثم يتطرقون كالسهم عند شرح القسم الثاني ،
وتظهر براعتهم في تشریح دقائق المعاملات

وهنا نكتة تستحق التسجيل . فرجل الدين في الفرنسية
يوصف بأنه Religieux ، ومعنى هذا الوصف أنه لا يصلح لفهم
أمر المعاش بسبب انقطاعه عن صحبة الناس

فكيف أمكن لرجال الدين من المسلمين أن يكونوا أئمة
في شرح القوانين المدنية ؟

يرجع ذلك إلى روح الدين الإسلامي ، وهو دين يدعو جميع
أبنائه إلى الاندماج في المجتمع ، ويهزمهم قهراً على الأخذ من منافع
الدنيا بنصيب ، ليعرفوا الدقائق من شؤون الناس وهم قضاة
الناس . وهل يصلح القاضي للفصل في نزاع لا يحس له شبيهاً
في حياته المعاشية ؟

كان يقال إن أحق الناس بالإمامة في الصلاة وفي القضاء هو
الزوج ، ويرجح زوج المرأة الجميلة ، لأنه أقرب إلى التفهم ،
بفضل ما يملك من الجمال الحلال

وأقول إنما قدّم زوج المرأة الجميلة لأنه يعاني من التاعب
أضغاث ما يعاني سواه : فهو أعرف بشؤون المجتمع ، وأقدر على
فهم شؤون المعاش

وأقول أيضاً إن تنقل القعية من أرض إلى أرض كان يزيد
في قيمته التشريعية . فالشافعي له مذهب جديد ومنهجه قديم
بسبب تنقله بين مصر والعراق

وأقول كذلك إن الرحلة كانت شرطاً في التفوق العلمي عند
الأسلاف لفضلها الظاهر في الاطلاع على دقائق العادات والتقاليد

والقول الفصل أن رجل الدين عند المسلمين لم يكن من رجال